المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية(MECSJ)
العدد الثامن (كانون الأول) ٢٠١٨
www.mecsj.com\ar

أدبيات إسلامية في مواجهة ظاهرة التنمر.

ناديه سريجي

nadamr5@gmail.com

جامعة الملك عبد العزيز - ماجستير خدمة اجتماعية

ملخص المقال

يتعرض هذا المقال لقضية هامة تستحق الدراسة العلمية، ولمشكلة تظهر بعض معالمها في كثير من المجتمعات المعاصرة الغربية والعربية، ألا وهي مشكلة التنمر، وتنظر المجتمعات الغربية إلى هذه المشكلة من منظور مخالفتها لحقوق الإنسان وانتهاك القانون، بينما منظور المجتمعات المسلمة لها عامة ينطلق من تعارضها وتناقضها مع الموجهات العامة للشريعة الإسلامية، ولا سيما فيما يتعلق بمنظور العلاقات الإنسانية التي جاء الإسلام بتهذيبها بهدف بناء شخصية إسلامية متكاملة قوية.

إن التنمر مشكلة ليست حديثة، والعدوان مشكلة قديمة قدم حياة الإنسان على الأرض تجلت في أول عدوان بين ولدي آدم قابيل وهابيل، ويُعرّف التنمر في اللغة بأنه التّشبه بالنّمر، يقال (نَمِر نَمراً) كان على شبه من النّمر، وهو أنمر وهي نمراء (نَمر) فلان: أي غضب وساء خلقه، (تَنمر) لفلان: أي تنكر له وتوعده بالإيذاء (المعجم الوجيز، 2001: 635).

ومن الممكن تعريفه بأنه انتهاك وإعتداء منهجي يحدث عند اختلال ميزان القوى بين طرفين، فيقوم الطرف المتفوق جسدياً أو نفسياً أو اجتماعياً (المتنمر) بانتهاك السلطة، والإعتداء، وإلحاق الأذى والضرر، بشكل مقصود ومتكرر، ضد الطرف الأضعف (المتنمر عليه)، فنجده يعتزم ممارسة السلوكيات التنمرية بعدة أشكال جسدية أو لفظية أو عاطفية، بهدف التحقير والإخضاع وإثبات الذات بشكل تعسفي، دون اعتبارٍ للمبادئ الإنسانية والإسلامية.

وقد بتنا نراه بل نعيشه كثقافة سائدة وقيم مألوفة تنامت مع تنامي الفردية وخبوْ روح الجماعة في المجتمعات التي نعيشها.

ويتناول هذا المقال تحديداً التعريف بأدبيات إسلامية تم استخلاصها من آيات وأحاديث واضحة وصريحة تهذب النفس وتوجه الفكر وتقوّم السلوك، وتجعل الأخوة نظاماً عادلاً تصان به الحقوق والواجبات، ويتم فيه تبادل العاطفة على نحو يرقى بالإنسان ويجمع بين ما ينشده لنفسه وبين ما يجب عليه للآخرين، وتقع مسؤولية علاج التنمر والوقاية منه على معرفة وفهم هذه الأدبيات والقيم الأصيلة، من خلال التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الطفل منذ نعومة أظافره داخل الأسرة وفي المؤسسات التعليمية بعد ذلك.

أدبيات إسلامية في مواجهة ظاهرة التنمر.

الإسلام يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، لذلك نجده يغرس تعاليمه في جوهرها لتكون مبادئه جزءاً من الشخصية الإسلامية الأصيلة، بعيداً عن كونها مجرد شعارات تردد لتسقط أمام اضطرابات الحياة وتقلبات النفس البشرية، وما خلدت رسالة الإسلام إلاّ لأن النفس الإنسانية كانت محور اهتمامها ومبادئها قوى تسيطر على وساوس الطبيعة البشرية وتوجهها نحو الفضيلة، فنجد أنها قد تحدثت عن المجتمع وأفراده بأوضاعهم المختلفة، وقدمت أدوية لما يعرو هذه الأوضاع من خلل، حيث أن النفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم، والنفس الكريمة ترقى بالأحوال المختلة لأن نبلها يشرق من داخلها فتحسن الفكر والمسير، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً) [رواه أحمد] ومن هنا تنبثق العاطفة النقية والفكر السليم اللذان يمهدان لمجتمع متكافل تسود المحبة والعلاقات الآمنة.

إن التعارف والتآلف لا التنافر أساس العلاقات بين البشر كما أرادها الله، ولذلك رد أنساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين ليجعل من هذا الرحم ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} سورة الحجرات، آية: 13. (الغزالي، 2005). وقد تطرأ عوائق تمنع هذا التعارف من المضي في مجراه، كظاهرة التنمر التي سأتناولها بالحديث نظراً لتفشيها في كافة المجالات وعلى مختلف المستويات، بين شرائح المجتمع كبيرها وصغيرها، ولما لها من آثار سلبية تعيق تقدم المجتمع المسلم.

إن أحد طرق التصدي لهذه الظاهرة هو التطرق لموقف الشريعة الإسلامية، وذلك من خلال طرح مبادئ وأدبيات إسلامية كنهج إسلامي أصيل يدعم التآلف ويمنع التنمر، وهي كما يلي:

المبدأ الأول: المساواة.

إن تدعيم حقيقة المساواة بين البشرية على اختلافهم وتنوعهم هو المبدأ الأساسي لمواجهة التنمر، حيث أن الإيمان والاعتقاد فكراً وحساً ومعنى بأن التنوع سنة من سنن الله في الكون والدالة على إعجازه، لا يصح أن تُستغل لانتهاك حرمات الآخرين، كفيل بأن يقف عائقاً بين المرء وممارساته التنمرية على من هم أدنى منه.

فأولى المبادئ التي أرساها الرسول صلى الله عليه وسلم هو المساواة الكاملة بين مختلف الطبقات والجماعات، وجعل الشريعة تطبق على الجميع لا فرق بين حاكم أو محكوم، مساواة تنطلق من مبدأ صاحب الرسالة (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [رواه البخاري ومسلم]، ومن هنا ينبثق أن البشر جميعاً متماثلين تماثلاً مطلقاً في الواجبات والحقوق، ورفض أي نوع من أنواع التمييز بينهم على اعتبار عرقهم أو لونهم أو ديانتهم أو انتمائهم السياسي أو الاجتماعي، وكما قال صلى الله عليه وسلم أيضاً: (أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد) [رواه مسلم].

وأولى ثمرات المساواة انتفاء العبودية لغير الله، وشعور الإنسان بامتداد شخصيته أمام سائر الخلق، وبأنه ليس لأحد ما أن يزعم لنفسه منزلة يستعلي بها على الآخرين، فهم أولاً عبيد لله لا يستثنى من هذه العبودية بشر، قال تعالى: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} سورة مريم، الآية: 93.

ثم هم أسرة واحدة، يجمعهم على اختلاف الأجناس أب واحد وأم واحدة، فلا مجال لتفريق عنصري أو امتياز إقليمي، والاختلاف الواقع في أحوال الناس وملكاتهم ولغاتهم مظهر لإبداع الخالق (الغزالي، 1997)، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} سورة الروم، الآية: 22. فالمقصود من هذا الاختلاف أن نتآلف ونتعارف لا أن نتنمر ونعتدي.

ويتجلى معنى المساواة في قصة بلال بن أبي رباح رضي الله عنه الذي لم يكن قبل الإسلام أكثر من رقيق يرعى الإبل على حفنات من التمر، لكن عظمة هذا الدين بوَّأته في حياته بل وفي تاريخه مكاناً علياً بالإسلام فاق مكان وذكر كثير من البشر، ففي المدينة عيّنه صلى الله عليه وسلم كأول مؤذّن في التاريخ، بنداء الإعلام لأهم الشعائر، ليثبت في الأسماع والعقول لاسيما العرب مبدأ السواسية.

كما أن من ثمرات المساواة أيضاً الواجبات المفروضة لا يشذ عنها فرد قادر من عقائد وعبادات وأخلاق، فالمسجد يصطف فيه الخاصة والعامة، وتنحني أصلابهم قدماً بقدم ورأساً برأس (الغزالي ، 1997)، وفي الحج الركن الخامس للإسلام يتجسد مفهوم المساواة بين المسلمين وهم يلبسون الثياب البيضاء كرمز للمساواة أمام الله، ثم يدخلون حالة الإحرام كرمز للنقاء الروحي، حيث يتجنب الحاج فيها الخصام والعنف، فيمشي المسلمون في مكة كتفاً بكتف سادتهم وعوامهم، بيضهم وسودهم، لتجديد العهد إلى الله، ينادون بصوت واحد: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك).

فبعد ذلك كيف يحق لأحد من البشر ينتمي للإسلام أن يستعلي ويستقوي على غيره، بل ويتجرأ ليمارس ضد أخيه في الإنسانية أي سلوك تنمري دون وجه حق أو لأي سبب كان، كاستعلائه بجنسه أو قبيلته أو لونه أو غير ذلك، فجدير بمن تسول له نفسه ذلك أن يعود لإيمانه ويراجع تمسكه بمبادئه.

المبدأ الثاني: الأخوة الإنسانية.

إن تدعيم معنى الأخوة الإنسانية كما جاء بها الإسلام هو المبدأ الثاني لمواجهة التنمر والتصدي له، فالإسلام يقيم الصلة بين المسلمين على الإخاء الوثيق، فالأخوة شراكة روحية ومادية، إنها تلوين للعاطفة الإنسانية بالحب، ثم توجيه السلوك العام وفق ما تقضي به هذه الأخوة (الغزالي، 1997).

حيث أن صلة الأمة الإسلامية ببعضها أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم على الإخاء الذي تمحى فيه كلمة "أنا" ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة، فتذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن (الغزالي، 2006)، ويتجلى ذلك في قصة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه والقبطي حينما تسابقا، فسبق القبطي عبد الله، فضربه وقال خذها وأنا ابن الأكرمين، وكان أبوه والياً على مصر، فشكاه القبطي إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فأحضر عمر رضي الله عنه الابن وأبيه واقتص للقبطي منهما وقال: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

فالمتنمر تتضخم الأنا لديه فلا يرى سوى ذاته التي تتمادى في الإعتداء على من هو أضعف منها، تحقيقاً لرغبتها في التسلط والإستبداد وعدم الشعور بإنسانية الآخرين، وهنا يأتي دور المربين والدعاة وكل صاحب صوت مسموع في المجتمع أن يساهم في غرس قيم ومبادئ الإسلام في نفوس الناشئة والمجتمع عامة لترقى أنفسهم وأرواحهم بمبدأ أصيل وهو الأخوة ومحبة الآخرين، يتجلى في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [متفق عليه].

إن الإخاء الحق وترعرع المحبة لا ينبت في البيئات التي يشيع فيها التنمر بأشكاله، وقد سجلت الدنيا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التآخي الوثيق في ذات الله، لأنهم ارتقوا بالإسلام في نواحي حياتهم كلها.

ومن أروع الأمثلة في التآخي حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، وقدّر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون به إلى العمل الشريف.

إن غريزة حب النفس أصيلة في بني آدم لذلك يجب مراقبة سيرها حتى لا تنحى بصاحبها عن سواء الصراط، فهي ليست شراً محضاً، فسر التقدم العلمي يعود إليها، والقانون النفساني القائم على طلب المنفعة ورفض الضرر، هو سر الاتصال والاتساع الدائم في الحياة، وعليه التعويل كذلك في إحراز الجنة والزحزحة عن النار، وإنما تحذر وتتقى عواقبها عندما تتضخم وتحصر المرء في عالم خاص به يجعله ماضياً في تكبير شأنه وتهوين غيره، و"أنا" دائماً شارة القصور الأدبي والتصرف البهيمي، للمتنمرين (الغزالي، 2012).

وقد تيقظ الإسلام للبوادر التي تدمر الأخوة وتسبب العدوان والجفاء، فلاحقها بالعلاج بما يمسك القلوب على المودة، والإنسان في كل حادث تنمر أحد شخصين، إما أن يكون متنمراً ظالماً، فينبغي أن ينتهي ويصلح سيرته وسريرته، ويسارع لتطييب خاطر أخيه، وإما أن يكون متنمر عليه فنصح له الإسلام دفع الأذى عن نفسه، ورغب له مسامحة أخوه إذا جاءه معتذراً، لمحاربة الأحقاد، والرقي بالمجتمع لمستوى رفيع من الصداقات المتبادلة والاخوة الأصيلة، حيث أن ترسب الحقد والغل في الأفئدة يتلمّس متنفساً له، فلا يهدأ حتى يتنمر ويؤذي، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) [رواه البخاري] (الغزالي، 2005).

فاستشعار مبدأ الأخوة الأصيلة يرقى بالأرواح والسلوكيات من الأهواء الدافعة للتنمر، وهو أساس نشأة مجتمع تنمو في حناياه قوىً تسوق إلى الخير والحب والرحمة، وهو ما لن يتم في بيئة أو مجتمع يتنمر القوي فيه على الضعيف، ولا يتصدى المجتمع بمختلف فئاته ومؤسساته لذلك.

المبدأ الثالث: الكرامة الإنسانية.

إن تعزيز مفهوم الكرامة والعزة في النفوس هو المبدأ الثالث لمواجهة ظاهرة التنمر، حيث أن تحرير الإرادة الإنسانية من أغلال الإستكانة للظلم ركن خطير في كل إصلاح، فالمتنمر متكبر متطاول يزعم لنفسه ما ليس لها والمتنمر عليه جاهل بقدرِه تحمّل من الأوزار ما لا يطيق.

إن الكبرياء على العباد صفة رب العباد ولا ينبغي لبشر أن ينازع الله وصفه المستحق، وهم إنما يكونون في أزكى أحوالهم ساعة تعنو جباههم لرب العزة سجداً، والتكبر إنما يعني جملة من الخصال الخسيسة، وفي طليعتها جحد الحق والتجاوز على الآخرين وسوء العشرة، وفي المقابل حرم الإسلام على المسلم أن يَهون أو يُستذل أو يُستضعف لكل ما يخدش كرامته أو يجرح مكانته (الغزالي، 2005).

وقد جاهدت الإنسانية طويلاً لتنجو من قبضة الظلم والكبر، والإسلام حاربهما بوسيلتين:

1- تحريم الاستكانة له، وشحذ الهمم لمقاومته ورفض الاستسلام والركون لأصحابه (الغزالي، 1997)، فالإسلام يَدعُ المؤمن ليستقر في البيئة التي توفر معاني العز والحرية الكاملة، فإن استحال ذلك، عليه أن يتحول وينشد الكرامة في أي مكان، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً

فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} سورة النساء، آية: 79، وقد عذر الله الذين يفقدون القدرة ولا يجدون وسيلة للنجاة، وهذا التعبير يشعر بكراهية الإسلام لاحتمال الهوان ويستنهض الهمم لتبذل الجهد في التخلص منه.

إن اعتزاز المسلم بنفسه وكبرياء إيمانه من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام وغرسها، إنها أنفة المسلم أن يصغر لسلطان أو يتّضع في مكان أو يكون ذنباً لإنسان، ويجسد ذلك موقف عبد الله بن الزبير عندما مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه به وهو يلعب مع رفاقه، فأسرعوا يلوذون بالفرار هيبةً وإجلالاً لعمر، في حين ثبت عبد الله، ولزم مكانه فقال له عمر: ما لك لم تفر معهم؟ فقال: لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك.

وعلام يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم منادياً بتكبير الله وحده في بداية الأذان ونهايته، ولماذا يكتنف حركات الصلاة كلها؟ ذلك ليوقن كل مسلم أن كل متكبر بعد الله صغير، وأن كل متعاظم بعد الله حقير، فكأنما وكّل إلى هذا النداء أن يذكر الناس بذلك (الغزالي، 2005).

2- إرهاب الظالمين ابتداءاً، قال تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} سورة هود، الآية: 113، في هذه الآية تحريض على دفع العدوان واعتبار الرضى به ومملاة أصحابه ذل وظلم للنفس (الغزالي، 1997).

والإسلام أوصى بالعزة وهدى إلى أسبابها ووضح أن العزة في طاعة الله، والمؤمن يجب أن يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص في الحياة الرفيعة، فإذا تنمّر عليه أحد أو طمع فيه باغٍ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهاداً في سبيل الله وليس ذياداً عن الحق الشخصي فقط، بل إقراراً للحقوق العامة والمثل العالية، جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يارسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال لا تعطه مالك! قال أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله! قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد! قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار) [رواه مسلم].

نعم فمن عزة المؤمن أن لا يكون مستباحاً لكل طامع أو غرضاً لكل هاجم، وإنّما شُرع الثأر من المظالم إعزازاً لجانب المظلوم وإيهاناً لجانب العادي، فلا ينزل عنها إلا عفواً كريماً أو سماحةً تزيده عزاً.

ولمّا كان في النفس الإنسانية شيء من الضعف والقلق ربّما حمَلها على الخنوع لمن يملك الفصل في أمورها وقضاء مطالبها وربما حدا بها إلى مواقف تجافي الكرامة، فعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألاّ نستكين لهذه الأمور (الغزالي، 2005).

فهذا الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه - أكثر الصحابة شبهاً بالرسول صلى الله عليه وسلم شكلاً - وقد حرص على ظهور عزته وعزة الدولة الإسلامية، عندما وقف بثيابه الرثة دون خشية من الجاه والسلطة أمام زعيم أكبر دولة في العالم، ليسلمه رسالة زعيم دولة من بلاد العرب الذي ينظر إليها الرومان نظرة دونية، ومع ذلك لم يتردد دحية رضي الله عنه في أن يسلّم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بمنتهى الوضوح والعزة والحكمة (الغزالي، 2006).

وأساس كل ما ذكرناه أن التنمر وصفاً لشخصين، المتنمر والمتنمر عليه، فالأول باغٍ يجور على غيره، والثاني مستكين للظلم يقبل الضيم دون مقاومة، وكلا الأمرين مضادين لمبادئ الإسلام الذي وجهنا لعدم انتهاك حقوق الآخرين والتصدي لأي انتهاك وتنمر على النفس أو على الآخرين.

المبدأ الرابع: النهي عن التكبر والتعالي.

إن المبدأ الرابع لمواجهة التنمر يتمثل في تحريم أي نوع من التكبر والتعالي على الآخرين، بسبب الاختلاف الطبقي أو القوة المادية والمعنوية، والذي يؤدي لممارسة السلوكيات التنمرية التي تناقض مبادئ الدين الإسلامي.

إن التظالم بين الناس قديم قِدم الخليقة نفسها، فما أن يشعر بعضهم بمزيد من القوة حتى يحاول تسخير الآخرين لمشيئته وشهوته، ويظهر أن البطر يمتلك الإنسان إذا أحس تفوقاً مادياً أو أدبياً، ولم تكن لديه حصانة من الخلق وسداد الرأي، وكبرياء السلطة غايته التحكم في إرادة الآخرين وتصريفها وفق مشيئة القوي المتغلب، ونشوة السلطان هي التي جعلت الشاعر العربي يقول:

ترى الناس إن سرنا يسيرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس أوقفوا.

لم هذه السيطرة؟ وبم يملك إنسان زمام الآخرين على هذا النحو؟ إن أصحاب هذا الوصف ممن يوقعون العدوان ويستمرئون الطغيان، يقول الله جل شأنه محذراً: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} سورة إبراهيم، الآية: 50-51 (الغزالي، 1997).

وقد تضطرب المجتمعات الإنسانية ويختل ميزانها وتنقسم إلى قوي وضعيف، معتدي وضحية، والإسلام طبعاً عدو لهذه القسمة الجائرة، وقد بُلي صلى الله عليه وسلم في مكة باختبار لموقفه من هذه الحال، عندما أرسل كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم يقولون: اطرد هؤلاء عنك -المستضعفين من أهل مكة - ونحن لا نرى بأساً من اعتناق دينك، فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعثوا إليه مرة أخرى يقولون له: إن لم يكن من بقائهم بد، فليكونوا في مؤخرة الصفوف، ونتولى نحن الصدارة، فألقى الوحي الإلهي كلمته بأن مبادئ الإسلام لا يضحى بها بأي شكل ولأي سبب.

إن التحرر من التعالي واحتقار الآخرين وتخويفهم بالتنمر عليهم بسلطان القوة أو الجاه المادي والمعنوي هدف إسلامي أصيل، فالإسلام يوجه لأن يمتلأ وجه الأرض بالأمان والاستقرار المكفول للبشرية جمعاء، وهو المحيط الذي يجب أن يستشعره ويحياه المجتمع المسلم مهما اختلف على مبدأ أو في تفكير.

المبدأ الخامس: تحريم السخرية.

إن تحريم السخرية والإستهزاء بالآخرين والذي يعد شكل رئيسي للتنمر على الآخرين والإعتداء عليهم، هو المبدأ الخامس لمواجهة التنمر.

فالتنمر والإعتداء على الأبرياء جريمة، يدفع إليها الكرْه الشديد والذي من صوره تلمس العيوب للناس وإلصاقها بهم عن تعمد، وهذا يدل على خبث ودناءة، وقد رتب الإسلام عقوبات عاجلة وآجلة لجرائم الإفتراء، قال صلى الله عليه وسلم: (من ذكر امرىء بشيءٍ ليس فيه، ليعيبه به، حسبه الله في نار جهنم حتَّى يأتي بنفاد ما قال فيه) [رواه الطبراني]. ومن لوازم الحقد سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنية أو النفسية (الغزالي، 2005) وهي سلوكيات تنمرية منبوذة عرفاً وشرعاً، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} سورة الحجرات، آية: 11. ونظراً لخطورة الأمر وعاقبته السيئة حذرنا ربنا بنداء الإيمان نداء تلطف ورحمة، فيا

من اتصفتم واجتمعتم تحت لواء الإيمان لا النسب ولا المال ولا الجاه ولا اللون ولا غيرها، إن السخرية من أخلاق الكفار والمنافقين، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) [رواه مسلم].

كما أن السخرية تقود إلى الغيبة وهي من كبائر الذنوب، وصاحب السخرية لا بد أن يكون همّازاً لمّازاً، واللمز هو المباشرة بالسوء والمكروه والمواجهة بالقدح والعيب بالقول، والهمز بالفعل كأن يعيب بالإشارة بالعين أو بالشدق أو بالرأس، وتلك سلوكيات تنمرية لا يصح أن يحياها المجتمع المسلم.

وإذا فشت السخرية تنافرت القلوب وانحلت الروابط، فحل التعادي والهجر والتدابر والتباغض، وانتفت صفة عباد الله إخواناً، ولذا نهى الله تعالى عن تلك الأمور، قال أبو جبيرة ابن الضحاك رضي الله عنه: فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ} سورة الحجرات، آية:11، قال: قدِم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منّا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا فلان، فيقولون: مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم فأنزلت هذه الآية [رواه أبو داود]، ولمّا عابت عائشة صفية رضي الله عنهما غضب النبي صلى الله عليه وسلم عليها، كما روت عائشة رضي الله عنها: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: (حسبك من صفية كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته) [رواه أبو داود].

وقد كان سلفنا الصالح يَتوَقُّون عيب غيرهم وقدحهم، والسخرية بهم، حفاظاً على الأخوة، وتأليفاً للقلوب، وحذراً من الوقوع في عيوب أهل العيوب، وكان ابن مسعود رضي الله عنه من أشد الناس في ذلك حتى نقل عنه قوله: (لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً) [رواه ابن أبي شيبة] (الغزالي، 2005).

وختاماً..

فإن رسالة الإسلام ترقى بالإنسان نحو العاطفة السوية التي تجمع بين ما ينشده لنفسه وبين ما يجب عليه للآخرين، والتي يجب البناء عليها من أجل إعداد وتكوين أمة شعارها حسن الخلق القائم على نظام الأخوة وبناء جيل يمتلك أخلاقيات وأدبيات التعامل مع الآخرين، جيل يعرف حقوقه وواجباته في ضوء دينه ومجتمعه فلا يعتدي على غيره ولا يسمح بأن يتم الإعتداء عليه، ولقد أكد كارول Carole (2004) على أهمية الإرشاد الديني والروحي للمتنمرين، وضرورة تعليمهم مبادئ أخلاقية جماعية وقيماً يؤمنون بها، ومساعدتهم على فهم أنفسهم والآخرين (علوان، 1997).

والواجب على الجميع عدم الرضوخ والاستكانة لظاهرة التنمر والوقوف في وجه المعتدي سواء أكان متنمراً عليه أو شاهداً على التنمر، حيث أن للإسلام تجارب كثيرة في صراعه مع المستبدين، وقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الشارة التي ميزت الأمة الإسلامية، فلابد من نقد الخطأ وإسداء النصح للمتنمرين بما يبقي على الصواب حرمته، وعلى المجتمع كله أن ينهض بهذا الواجب لا لشيء إلاّ لأن الحق ينبغي أن يحيا ويبقى.

المراجع.

- القرآن الكريم.
- المعجم الوجيز (2001) معجم اللغة العربية, القاهرة: الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- الغزالي, محمد, هذا ديننا, دمشق: 1997, دار القلم.
- الغزالي, محمد ,خلق المسلم, مصر: 2005 , نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الغزالي, محمد, فقه السيرة, دمشق: 2006, دار القلم.
- الغزالي, محمد, جدد حياتك, ط15, مصر: 2012, دار نهضة مصر للنشر.
- علوان, عبد الله, تربية الأولاد في الإسلام, ط31, مصر: 1997, دار السلام للنشر والتوزيع.